الروائي أحمد خلف استدعاء التاريخ

وأنت تتصفح رواية «الذئاب على الأبواب «للروائي العراقي احمد خلف وهي من إصدارات دار النخبة المصرية والتي كانت محظوظة جدا وموفقة في تعقب ما تنتجه قامة أدبية عراقية باسقة عرفت بمواقفها الثابتة تجاه الأدب بوصفه رسالة إنسانية تستحق التضحية وأقصد الأستاذ أحمد خلف الذي يعمل عمل بصمت وبروية، وقبل أن يتكلم هو ... فقد تكلم نيابة عنه نتاجه الثّر ابتعد طويلا عن الأضواء الزائفة فقد عاش بوجه وجلد واحد في الوقت الذي غير فيه كثيرين جلودهم ووجوههم كلما دعت الضرورة، وهكذا هي الثلة الخيرة التي تشكل خميرة الثقافة العراقية الأصيلة عبر العصور، وليس من باب الإطراء له فهو فوق ذلك، تشكَل منتجهُ الأدبي عن عمق معرفي في الرواية وفنونها وأساليبها مستمدا موضوعاته من عمق معانات الإنسان وحُق لي أن أشير له باهتمام بالغ مع ثلة من الشرفاء الذين بقيت أيديهم وألسنتهم نقية رغم المغريات السياسية والمتغيرات الاقتصادية والثقافية التي أخلت كثيرا وعصفت بالثقافة طوال عقد ونيف من الزمن.

وأنا أطالع هذه الرواية دونت بعض الاضاءات التي وجدت من الضرورة الإشارة إليها ولا أزعم أنها دراسة نقدية بما يعنيه النقد وفق مناهجه المختلفة هي مجرد انطباعات ذاتية أتمنى أن تكون في محلها:

أولا: استمدت رواية «ذئاب على الأبـواب» صورها من البيئة المحلية «حقبة حرب الثماني الحروب والحصار والكبت والموت . في المراحل الأولى لهذا السرد كانت الرؤيا الفكرية غير جلية، لما ستؤول أليه حركة المجتمع «حيث كان الاستهلال بمثابة صرخة كشفت عن التقلبات الاجتماعية السريعة بفعل الاحتلال «**خلت الشوارع الفرعية من المارة في الأيام الأخيرة من هذا الشهر في هذا العام، كانت المدينة لا تطمئن لما يدور في الخفاء من دسائس واتفاقيات سياسية سرية كلها تشير إلى انعدام الثقة بين الجميع «ص7 مستهل الرواية .**

اذن **هو تهيئة لذهنية المتلقي وتحفيز للقادم من الأحداث**، مصير مجهول تنبؤ بالموت القادم انعدام للثقة بين الناس، كل هذا يحدث في المدينة التي نكبت وتحولت إلى وكرّ للمجرمين والسراق ومجهولي الانتماء، انفتاح على رعب لا يمكن التكهن به شكل المستهل، انفتاحا على مغاليق مجهولة المضامين وهو تطلع الى ما وراء الحدث.

يعبّر الروائي ومنذ البداية عن مستقبل معتم تماما وعن معانات انسانية في الافق، كأن الروائي يقول إن الإنسان في هذه المدينة يعيش

أزمة تتجلى في كل شيء، تهدده لحظة الصفر، وتأخذه الحركة الدائرية «التي تتسلى بالعبث». إنه – عهد الديمقراطية الذي رافق الاحتلال البغيض للعراق – الإنسان هنا ما يزال ببساطة يجهل كل شيء عن المستقبل، وإنه ليس ثمة معنى لأي شيء. إنه يعيش في الحياة التي تشهد تطورا حدثيا غير مسبوق في تغيير القيم والاعتبارات الاجتماعية، يوسف ظلّ نزقاً، مرتابا خصوصا بعد حادثة تفجير بيته وموت زوجته – يبحث عن شيء في لا شيء «**كل هذا حصل لك وحدث لك ولم تنفجر وتموت في الحال؟** «**السؤال الذي وجهه لنفسه وهو يستعيد الماضي ويتلمس ضياعه ويأسه من كل شيء قلقه الدائم، وحتى عندما حاول بعضهم تهدئته «اسمع يا يوسف أصبح ظرفك الآن صعبا وعسيراً عليك ينبغي ان تفكر بأيامك القادمة ...» ص11:**

أحسب أن هذا الاستهلال شكّل نقطة الانطلاق الواثقة نحو تتمة الأحداث الاسترجاعية أذا صح التعبير والتي استعرضت على لسان البطل المأساة الإنسانية التي عاشها العراقي من خلال استحضار الماضي القريب على لسان بطل الرواية والذي سيطلعنا كلما توغلنا في السرد على تفاصيل في غاية الدقة رسمت شكل الحياة وقسوة الحرب التي سلبت اجيال حريتها وحقها في العيش، الحرب بصفحاتها سيقرأها لنا الروائي على ألسن شخوصه المفترضين وسيعرج بنا الى عوالم لم تضع الإنسان سوى أمام أتعس الخيارات.

أن الإرث المعرفي والسردي لجيل الروائي أحمد خلف جعل الرواية كأحد ابرز تجنيسات الأدب يتخذ شكلا محددا في طريق الإبداع ويتنقل مع المتلقي بثقة كبيرة، عما عليه رواية اليوم من أعاقة وادلجة وتقريرية تفقد المتلقي متعة المتابعة.

تحلق بنا أحداث هذه الرواية لعوالم تتعقب هموم الإنسان، إحساسه بذاته واستلابه وتغريبه وانعزاله وفقره يقابل ذلك قدرة الإنسان العراقي على الصبر والمطاولة ومقاومة الأحداث التي تهدد وجوده، وهنا تبرز قدرة الروائي على أعادة صياغة الواقع على المستويين الفردي والجمعي «فذئاب على الأبواب «تروي قصة مجتمع بأكمله وإن تحددت من حيث تعاقب الأحداث بشخوص الفعل الروائي .

وهنا لابد من الإشارة ومن خلال التشابك بين الواقع المتهرئ والتاريخ المحتقن بحوادث الماضي، من جهة تراكمه ورسوخه وفرض إيقوناته ورموزه قد تطلب من الروائي فكّ هذه الشيفرات وفعلا استطاع وبذكاء تام في وضع إيحاءات معبرة عن ذلك النكوص والتداعي الذي طرأ على بنية المجتمع كنتيجة طبيعية للاحتلال البغيض، ومن خلال إعادة جزيئات الواقع إلى مسبباته وتراكماته عبر زمن خارج زمن الروي، فضلا عن أعادة صياغة الإحداث التاريخية بما يتوافق مع تطلعات الإنسان من قيم حضارية وبناء المستقبل، كل ذلك حدث من

خلال منظور معرفي، قادر على فرز الوقائع أو إعادة توجيهها من خلال الحوارات التي تتخذ احيانا السخرية كأحد الأساليب التعبيرية .

أشارت بعض التفاصيل الى صورة تفصيلية دقيقة اقتربت من الأرخنة لبعض ما حدث فعلا يقول الروائي:

«كانت ليلة السابعة عشرة بعد التسعين باردة وقاحلة حقا، رجل مطارد من قبل أناس جنوا عليه بالجرم المشهود ولم ينالوا جزاءهم العادل جراء ما ارتكبوه بحقه، وتذكر تماما انه لم يبك اثر تفجير بيته ومقتل زوجته وابنته مع انه تمنى لو يجهش بالبكاء ... تلك الليلة توارد اليه دبيب حركة غامضة ... ص172.

هي صورة مجسمة لما يحدث في مدينة بغداد المنتهكة والمأسورة من قبل عصابات منفلتة توقع العقاب بالموت وقت تشاء وعلى من يقع عليه الاختيار، فوضى عارمة لا وجود لأدنى الحقوق «لم ينالوا جزاءهم العادل» هي الحقيقة المرة التي استشعرها الناس في غياب تام لكل الموازين الأخلاقية والعرفية فضلا عن غياب تام لسلطة القانون، أحداث من صميم الحياة الاجتماعية السائدة . البطل غريب عن أصحابه مدينته، لا شيء في الأفق سوى الموت «الموت» من جهات متعددة لا يمكن معرفتها فقد لبست المدينة الظلام وسار سمة، انقطاع التيار الكهربائي جعل من الأزقة والممرات بيئة مناسبة للسفلة والمجرمين.

إن حركة التاريخ في «بغداد» توحي دائماً بالعدم، مع أن أحداث الرواية تسير في زمن متلاحق نسبياً، إلا أن الوجود الزماني للشخوص يشكل حيزاً واسعاً من «الزمان»، والشخوص الإنسانية المنتزعة، تستقطب الوجود الإنساني كله، متحدية، عنيفة في مواجهة الوجود الآخر المخالف. لكن هذا الصراع المحتدم مع المجهول لم يكن سائدا من قبل الغزو المدمر الذي هدد وجود الإنسان، وهنا يمكن القول أن الأحداث تمتزج امتزاجاً خالصاً بفكرة العدم، وتجعل من المواجهة بالمثل لوناً من ألوان العبث والعذاب الذي لا ينتج سوى الموت.

كانت الأحداث في بعض تعمد أن تلغي الزمن وتتخطى حواجزه وحدوده، فيحضر الزمن الماضي إلى الحاضر وتتناسج معه، وتبدو إسقاطاته تدعونا إلى التأمل، وفي هذا الإحضار لا يهم الرواية، تعاقب التاريخ أو تجمع المتشابكات فيه في فترة واحدة أو حساب المكان الواحد، بل تترى الشخصيات والمواقف تهمي كالمطر تخترق دخان الحاضر الذي يغلف المدينة، الى الماضي الذي لم يكن المشتهى مطلقا لما يعتريه من آلام ومآسي بيد أنها أقل وطأة من الحاضر الدامي، وعليه فقد عمد الروائي وبذكاء إلى استدعاء الماضي بغية تهديم الحاجز الزمني واللعب في فضاء أكثر سعة .

وهذا ما عبرت عنه الأحداث الاسترجاعية للزمن والتي شكلت نوافذ نحو بعض نسمات النقاء في العلاقات الإنسانية واستذكار بعض

الأواصر الجميلة التي كانت سائدة قبل أن يبثّ المحتل الغاشم سمومه بين أنسجة المجتمع .

والحقيقة أن رواية «الذئاب على الأبواب» من الروايات المهمة من خلال ما حملته من أبعاد فنية تعلقت بالسرد الروائي المنضبط والمتيسر لطبقات القراء جميعا دون أي تعقيد أو من خلال البعد التاريخي الذي تضمنته تصاعدية الحدث الروائي، وعلى الرغم من هذا التداخل بين ماهو (تاريخي) وماهو (فني) في السرد الروائي فقد تداخلت المرويات التاريخية حتى شكلت في هذه الرواية نسيجا متجانسا تمثل في الكشف عن بعض الزوايا المضببة من الماضي فكان الروائي في هذا الجانب مدونا لتواريخ استدعاها ليحدث توازنا في الربط بين الفواصل الزمنية وهنا نستطيع القول أن الروائي تطلع ومن خلال رؤيا الماضي ليحقق التواصل الإنساني.

كذلك تمكن الروائي أحمد خلف في «ذئاب على الأبواب» أن يحمَل التاريخ وجهة نظره، أو فلسفته الخاصة من أجل تطوير للحظة الآنية بدلاً من أن يكون أداة تسجيلية بيد المؤرخ وطبقاً لهذا التباين يمكن تدوين التالي:

1 – «التاريخ بوصفه واقعاً ومساراً وصيرورة موضوعية، يشمل ما يجري في المجتمع من أحداث وتطورات وصراعات منفصلة عن

الذات والنظرة الفردية. اشتغلت الرواية على الجانب التاريخي لإضاءة حقبة زمنية من عمر العراق.

2 – تمكن الروائي من صياغة الخطاب التاريخي بطريقة أدبية فنية وصلت بسلاسة الى ذهنية المتلقي وتعامل معها كجزء من السرد الروائي.

3 – حمل السرد الروائي في رواية «الذئاب على الابواب» تصويرا فنياً للأحداث ما قصه الروائي وصوره النص، حمل قيمة علمية كبيرة عبرت عن سعة أفق الروائي وإحاطته بالأحداث التاريخية بتفصيلاتها أدرجها في سياق زمني.

وفقا لذلك تكون الرواية ذات سمة تاريخية فضلا عن أنها مثلت عملاً فنياً يتخذ من التاريخ مادة له0 ولكنه لا ينقل التاريخ بحرفيته بقدر ما يصور رؤية الروائي للواقع من خلاله، للتعبير عن تجربة مريرة للروائي ذاته قد عاش أحداثها ودونها بأسلوب أدبي بما هو أفضل من الواقع .

ولذلك يمكن القول أن الرواية حملت مسحة تاريخية في غاية الأهمية وهي ليست جديدة على الادب العربي فقد شرع كتاب الرواية ومنذ مارون النقاش وخليل اليازجي، وسليم النقاش، وابي خليل القباني في كتابة الرواية التاريخية، كذلك اسحق ونجيب الحداد وغيرهما ترجموا الذين ترجموا المسرحيات التاريخية وكان لها اثر

كبير في بعث حركة القصص التاريخي، والتي واكبت حركة نشأة المسرح، ولا تبتعد الرواية عن متابعة التاريخ والنهل منه باعتبار أن السرد الروائي في جانب منه أرخنه للأحداث بطريقة أدبية تتوقف على إمكانية الروائي في عملية التوظيف التاريخي لخدمة السرد الروائي، وهذا ما اجده تجسد تماما في رواية «الذئاب على الأبواب» التي ترك الروائي احمد خلف نهاياتها مفتوحة للمتلقي والمؤول لتلك النهاية وهذا ما يحسب للروائي لإشراكه القارئ كجزء من عملية التلقي .

ونحن نتحدث عن رواية «الذئاب على الأبواب» ازعم هذه الرواية الملحمة تنتمي في مضامينها إلى مرحلة تيار الرواية التاريخية التي برز فيها الروائيان كرم ملحم كرم وأميل حبشي الأشقر اللذان قدما فيضا غزيراً من الروايات، بدأها الأشقر برواية (بلقيس ملكة اليمن) ثم (حسناء الحجاز)، و(الحارث الأكبر الغساني)، كذلك جاءت هذه الرواية سفرا تناغم فيها الروائي مع جرجي زيدان الذي حرص دائما على جعل رواياته مرجعاً تاريخياً.

والذئاب على الأبـواب من الأعمال الكبيرة في ظل التداعي الاجتماعي وانهار المنظومات الضابطة لحركة المجتمع وأنساقه بعد الغزو الأمريكي للعراق، فضلا عن انها صرخة مدوية بوجه هذا الكم الهائل من الانحطاط الأخلاقي وتشرذم المجتمع.